المدينة الإسلامية

لماذا نهتم بالمدينة الإسلامية؟

بكل بساطة لأن المدينة تعتبر ميزة أساسية للحضارة الإسلامية. فالإسلام دين المدينة وبناته الاوائل أهل المدن وأبناؤها. وبناء على هذا الاعتبار رأينا أن نهتم بهذا العنصر لنفهم لماذا يشكل ميزة للمدينة الإسلامية. وسنعمل على مقاربة الموضوع من خلال العناصر التالية:

1-تعريف المدينة من خلال الأدبيات الإسلامية

2-تحديد مصادر التجربة الحضرية الإسلامية

3-تحديد عوامل نشأتها وتطورها

4-دراسة تخطيط المدينة الإسلامية

5-التعريف بجهاز الأمن في الدولة الإسلامية

6-الحياة الاجتماعية

واعتمدنا مجموعة من المراجع أهمها:

- ابن أبي زرع، الأنيس المطرب
- ابن عذاري، البيان المغرب،
- ابن خلدون، المقدمة
- الغزالي، إحياء علوم الدين
- ابن تيمية، الحسبة
- السقطي، آداب الحسبة
- ابن عبدون، الحسبة
- ابن عمر يحي، أحكام السوق
- ابن منظور، لسان العر ب
- الفيروزبادي، قاموس المحيط
- ابن أبي الربيع، سلوك المالك في تدبير الممالك
- الماوردي، الأحكام السلطانية
- ابن رضوان، الشهب اللامعة
- ابن الأزرق، بدائع السلك في طبائع الملك
- ابن البناء، الإعلان بأحكام البنيان
- عبد الستار محمد عثمان، المدينة الإسلامية

- السبتي، المدينة في العصر الوسيط
- جعيط هشام، الكوفة
- جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي
- مادة مدينة في **الموسوعة الإسلامية**و**معلمة المغرب** و Encyclopédie de l'Islam
- الأصيبعي محمد إبراهيم، الشرطة في النظم الإسلامية

1-تعريف المدينة

تستخدم القوامس العربية للحديث عن المدينة؛ على الأقل، ثلاثة مصطلحات هي:

المدينة والمصر والقرية.

1-1-المدينة

في لسان العرب لابن منظور نجد:

- **مدن** (بفتح كل الحروف) --- مدن بالمكان: أقام به

ومنه **المدينة** وجمعها **مدائن** و**مدن** (بسكون الدال وضمه)

- **دين** (كسر الدال وفتح النون): **ملك** (ضم الميم وكسر اللام)
  أو **ديانة**

(عرفت عند الأكاديين والأشوريين بمعنى القانون والديان القاضي أو الملك أو الحاكم)

ومنه المدينة وجمعها مداين والنسبة إليها مديني ومدني، وبذلك يحيل معناها على مكان الإقامة أو المكان المملوك.

وفي الاصطلاح:

"الحصن يبنى في أصطمة [معظم الشيء وتمامه] من الأرض، وكل أرض يبنى عليها حصن في أصطمتها فهي مدينة"

فالمدينة إذن حصن.

وعند الفيروزبادي في قاموس المحيط:

"المدينة تعادل الأمة"

وبناء على ما سبق فالمدينة تعني حصنا يقام للدفاع ويشترط فيه:

وجود سوق ومنشآت عمرانية وظيفية وسلطة وعادات اجتماعية متميزة ونشاط اقتصادي متميز.

1-2-القرية

استخدم العرب اللفظ قبل الإسلام للإشارة إلى المدينة (آيات قرآنية-مكة ام القرى)، وفي العراق استخدم لنعت التجمعات السكنية الريفية، وقد انتشر خلال القرنين الأول والثاني الهجريين وعمم في الثالث.

لكن يجب التنبيه إلى أن التجمعات الحضرية التي يطلق عليها اسم القرية تقتصر في وظائفها على الطابع المدني والتجاري والديني بينما تغيب عنها الوظيفة السياسية والدينية بحيث لا تتوفر على حاكم أو قاضي، وهو ما يميزها عن تلك التي تحمل اسم مدينة.

القرية إذن مدينة لا تحمل طابعا سياسيا أو عسكريا، لذلك سيختفي الاسم تدريجيا ليترك المجال لكلمة مدينة.

1-3-المصر

المصر: المدينة المعروفة، وجمعه أمصار.

المصر: الكورة "المصر في كلام العرب كل كورة تقام فيها الحدود ويقسم فيها الفيء والصدقات"

ونقول مصر (تشديد الصاد) الأمصار: مدن المدن

مصر: المدينة الكبيرة

من خلال الوقوف عند معاني الكلمات الثلاث يلاحظ أنها تستخدم في كثير من الأحيان مترادفة للإشارة إلى شيء واحد أو متشابه هو المدينة، لذلك صارت مهيمنة مع تقدم الزمان. وقد حددت المعايير التي يجب توفرها في تجمع سكني لكي يطلق عليه أحد هذه الأسماء فيما يلي:

- معيار سياسي: وجود سلطة إدارية وقضائية
- معيار جغرافي: كبر المساحة
- معيار بشري: ساكنة مهمة عدديا
- معيار اقتصادي-عمراني: وجود مرافق عامة (مساجد-أسواق-حمامات...) -توفر مياه الشرب-أسوار-حصن...

2-مصادر التجربة الحضرية الإسلامية

انتشرت الحضارة الإسلامية على مجال شاسع امتد من الصين شرقا حتى المحيط الأطلنتي غربا، وبحكم التلاقح واستمرار تجارب الشعوب السابقة في ذاكراتها الجماعية وبزوغها بوعي أو بدونه في الإبداعات الجديدة، فإن حضورها في الحضارة الإسلامية أمر حتمي بالرغم من التوجيه القوي للإسلام وأخلاقياته. ولهذا الاعتبار توجه اهتمام الباحثين للبحث عن تأثير الحضارات السابقة خاصة العراقية-الإيرانية والهلينية-الرومانية والفرعوية-المصرية والعربية في المدينة الإسلامية. وقد ركزوا على البحث عن عناصر التشابه-وهذا عيب-ليثبتوا نسبتها إلى هذه الحضارة أو تلك. وكان للمستشرقين نصيب كبير في ذلك مثل *جون صوفاجيه*في دراسته للمدن السورية و*كزافييه دي بلانهون*وغيرهما. ودون الوقوف عند تفاصيل هذه الآراء يمكن أن نبحث عن بعض العناصر الكبرى التي يمكن أن تكون قد ترسخت في مناطق انتشار الإسلام وانتقلت إلى عمارة مدنه بعد ذلك.

فقد تميزت المدن الفرعونية-المصرية بالانفتاح والتحرر وبساطة التخطيط، والمدن العراقية بالانغلاق (تحصين قوي) والتشعب والالتواء ومركزية المعبد ومجاورته لدار الحكم، وعرفت المدن الهلينية حضور مؤسسات مميزة مثل السوقالروماني (BAZAR) والقيسارية (Basilica) والحمام والشوارع المحورية، وفي البلاد العربية وجدت تقاليد عريقة في العمارة الحضرية ع خاصة في اليمن والشام مثل بساطة الدور وانفتاحها وتوفرها على طابق واحد (بدو) أو طوابق متعددة (يمن) ومجاورة المعبد لدار الإمارة (الكعبة ودار الندوة بمكة) والتقسيم القبلي للأحياء (خطط أو رباع بأسماء العشائر).

يبدو أن كل هذه العناصر توجد في المدينة الإسلامية بشكل كامل أو محور مما جعل بعض الباحثين يفضلون الحديث عن مدينة شرقية بدل إسلامية (الألماني فيرت). وقد تدخل الإسلام؛ انطلاقا من مبادئه ومنظوره للحياة القائم على توفير الأمن والراحة والاحترام بتوجيه عمارة المدن فحدد نوع المنشآت المختلفة ومواقعها وعرض الشوارع وعلو المباني وأماكن ونوع النوافذ والأبواب...فنجح بذلك في وضع بصمته على هذا التراث.

فالمدينة الإسلامية هي خلاصة للتجربة الحضرية في العالم ما قبل إسلامي موجهة بأخلاق ومبادئ الدين الإسلامي.

3-عوامل قيام المدينة

توضح دراسة التجارب العمرانية الإسلامية؛ متمثلة في المدن الكبرى في العراق والشام ومصر والمغرب والأندلس، أن المدينة الإسلامية نشأت وتطورت أساسا بفعل تدخل وتشجيع الحكام لأغراض إدارية وعسكرية في المقام الأول، وتثبت ذلك مدن كثيرة مثل البصرة والكوفة وواسط وبغداد وسامراء والفسطاط والقيروان والقاهرة وتونس وفاس ومراكش والرباط والزهراء...فقد أنشئت هذه المدن كمراكز متقدمة لجيوش الفتح بقصد المرابطة بها وحماية مكتسبات الفتوح وحدود الدولة من غارات الجيران الأعداء (البصرة-الكوفة-القيروان-الفسطاط-تونس) أو لاتخاذها عواصم سياسية لدول إسلامية مختلفة (المدينة المنورة- بغداد-سامراء-القاهرة-فاس-مراكش-الزهراء-تاهرت-سجلماسة) أو مقرات ولاة وعمال (واسط-الفسطاط-القيروان-الزاهرة).

لكن هذا الأمر لا يعني عدم وجود مدن نشأت بشكل عفوي، فقد تطورت مدن؛ لكنها قليلة، بدون تدخل الحكام والسلطات بفعل وجودها في مناطق حدودية ثغرية كما هو الشأن بالنسبة للمنستير والرباط أو محطات لاستراحة التجار مثل نول لمطة وداي ...

ختاما نقول إن نشأة المدن الإسلامية ارتبطت أساسا بمبادرات الحكام.

3-تخطيط المدينة وتصميمها

يمر تصميم المدينة الإسلامية من مراحل كثيرة ويخضع لفحص دقيق من قبل خبراء من تخصصات متعددة تضم رجل السياسة والمهندس والطبيب والمنجم والتاجر والفلاح...وقد حدد المهتمون بالموضوع مجموعة من الشروط يجب توفرها في مواقع ومواضع المدن إذا أريد لها الحياة والاستمرار، ويلخصونها فيقاعدة "جلب المنافع ودفع المضار"

وحدد ابن أبي الربيع في كتابه "سياسة المالك في تدبير الممالك" العناصر الضرورية في كل تصميم كما يلي:

1-توفير الماء الشروب

2-تحديد الشوارع وتقدير عرضها

3-وضع مسجد جامع في مركز المدينة

4-وضع الأسواق

5-تخصيص خطط مستقلة لكل جماعة بشرية

6-وضع سكن الحاكم مع حاشيته في أفسح أطرافها

7-بناء سور

8-توفير الصنائع وأهل العلم

ويمر تخطيط المدينة من عدة مراحل أهمها:

- تملك الأرض التي اختيرت لبنائها، ويتم ذلك بأحد الطرق الثلاثة: تنازل أهلها عنها أو استعمال أرض للدولة أو شراء الأرض من أصحابها.
- وضع تخطيط من طرف مهندس خبير يحدد عناصر المدينة وموقع كل منها وخاصة منها الثلاثة المحورية: المسجد الجامع ودار الإمارة والخطط السكنية. ويتم ذلك بناء على طلب المؤسس.

وتتكون المدينة من مجموعة من العناصر وفق نظام إشعاعي ينطلق من المركز في اتجاه الأطراف، وهي:

°**المسجد الجامع** في المركز (تقاليد الحضارات القديمة)
مسجد جامع واحد في البداية ثم تعددت عندما زادت الحاجة وتجاوب الفقهاء بوضع بعض الشروط، فصارت المدينة تحتوي على أكثر من مسجد جامع، أما مساجد الصلوات الخمس فتنتشر في كل الخطط.

°**القصر أو دار الأمارة**

توضع إلى جانب الجامع وهي دار الحكم وسكن الحاكم، بدأ هذا التقليد منذ عهد الرسول واستمر مع الأمويين وبداية العباسيين، لكن الاحتكاكات بين رجال السلطة والعامة فرضت بناء هامشيا معزولا على شكل قصبة (قرطبة-فاس-مراكش...، أو مدن أميرية قرب المدن الرئيسية (بغداد/الكرخ- القيروان/رقادة+صبرة- قرطبة/الزهراء+الزاهرة- فاس/المدينة البيضاء أو فاس الجديد).

°**الخطط أو الرباع**

وهو المجال السكني، حيث توزع مربعات من الأرض على القبائل والعشائر التابعة للسلطان ويحدد موقعها من القصر حسب مدى قربها منه. وقد تحصل قبيلة على أكثر من خطة أو تجمع عناصر قبلية مختلفة في خطة واحدة. وفي هذا حفاظ على تجانس السكان واللحمة القبلية وتجنبا لصراعاتها ونعراتها. وتترك الحرية لأبناء القبيلة لاقتسام أرض الخطة فيما بينهم وفق ترتيبهم الداخلي وتحديد الأزقة والسكك وهو ما يفسر الالتواء والضيق. وتعرف الخطط بأسماء القبائل والعشائر.

°الشوارع والسكك

تنطلق من المسجد الجامع في اتجاه الأطراف في خطوط؛ في الغالب، مستقيمة، ويتحدد عددها حسب أهمية المدينة وموقعها في البلد (في الكوفة نجد: 05 شمالا و04 جنوبا و03 شرقا و03 غربا).

ويحدد عرضها حسب أهميتها ولتحقيق الغاية المنتظرة منها وهي المرور المريح وعدم الضيق، ويميز بين عدة أنواع:

-شوارع رئيسية ويصل عرضها إلى 40 ذراعا. ----- استقامة

-شوارع ثانوية ويصل عرضها إلى 30 ذراعا.----- استقامة

-شوارع ثالثية وعرضها 20 ذراعا.----- استقامة

-الأزقة والسكك وعرضها 07 أذرع (3.4 متر). التواء وضيق وعدم نفاذية.

°الأسواق

تنتشر في أماكن مختلفة من المدينة

-حول المسجد الجامع تجمع بين التجارة والصناعة، وترتب حوله حسب شرف البضاعة (الكتب-الشمع-الأثواب-الحلي....)

-على طول الشوارع الرئيسية

-عند الأبواب: أسواق أسبوعية يلتقي فيها أهل المدينة والبادية لتبادل البضائع وتعرض بضائع خشنة.

-مربعات داخل الأحياء/ قيساريات تجمع أهل صناعة وتجارة واحدة أو متكاملة أو متقاربة.

-الفنادق داخل الأسواق المختلفة: هي مكان لنزول التجار وتخزين البضائع وعقد الصفقات بين التجار.

°السور

تحاط المدينة عند بنائها أو بعد ذلك بسور واحد أو مزدوج أو بسور وخندق (بغداد-المهدية)، ويبنى من الحجارة أو الطوب أو التابية. وتفتح فيه أبواب بعدد المناطق التي ترتبط بها المدينة، وتبنى وفق هندسة دقيقة تسهل عملية الدفاع ورد هجومات الأعداء، فهي ليست مجرد أبواب بل هي بناية مكونة من عدة مرافق.

°الضواحي

خارج أسوار المدينة تنتشر مجموعة من المرافق التابعة لها والمكملة لوظيفتها، ومنها: الأرباض والمقابر والمصلى وميادين الخيل والحدائق والبساتين والأسواق الأسبوعية ومعامل الفخار والجير والدباغة وغيرها وقرى الجذمى والزوايا...

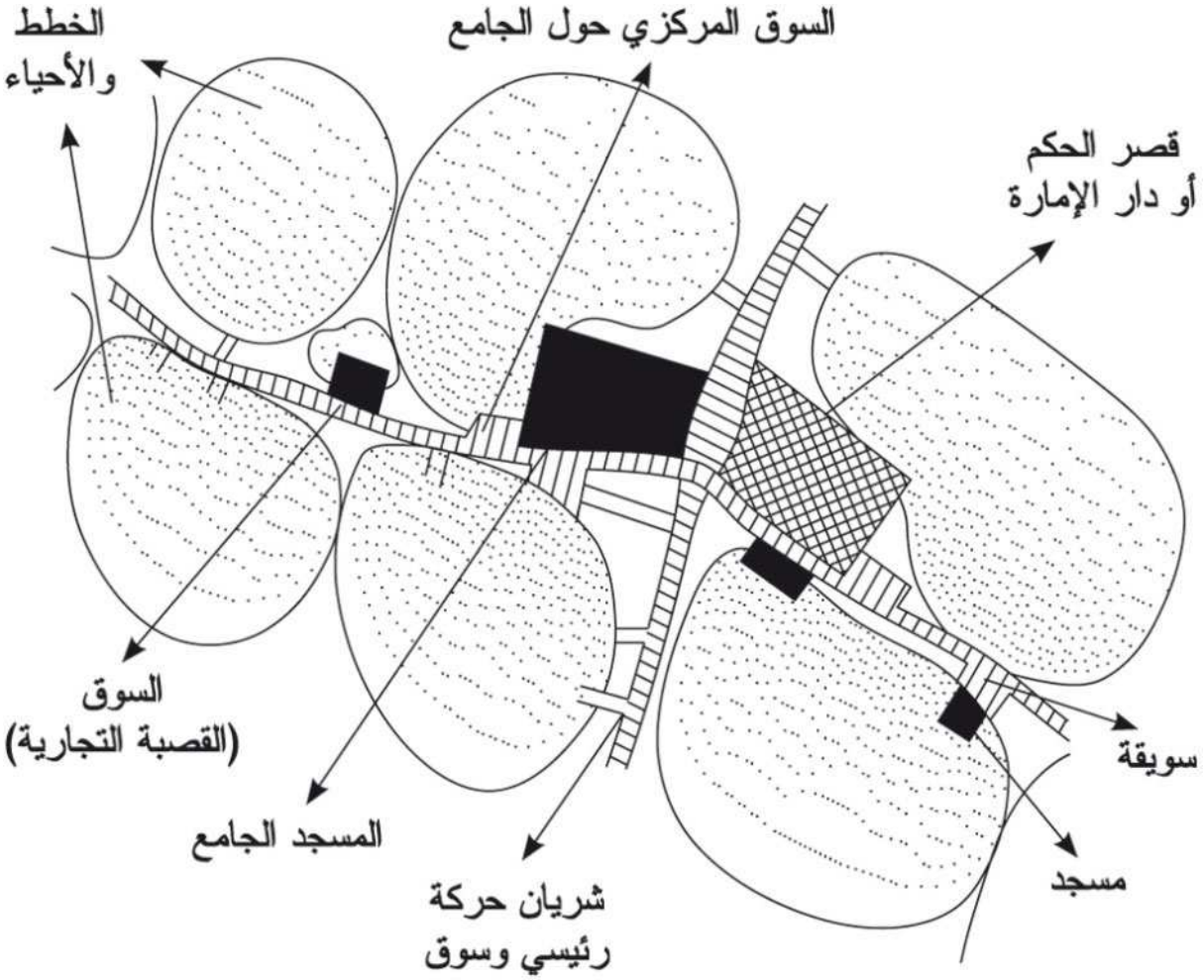

تصميم لمركز مدينة إسلامية

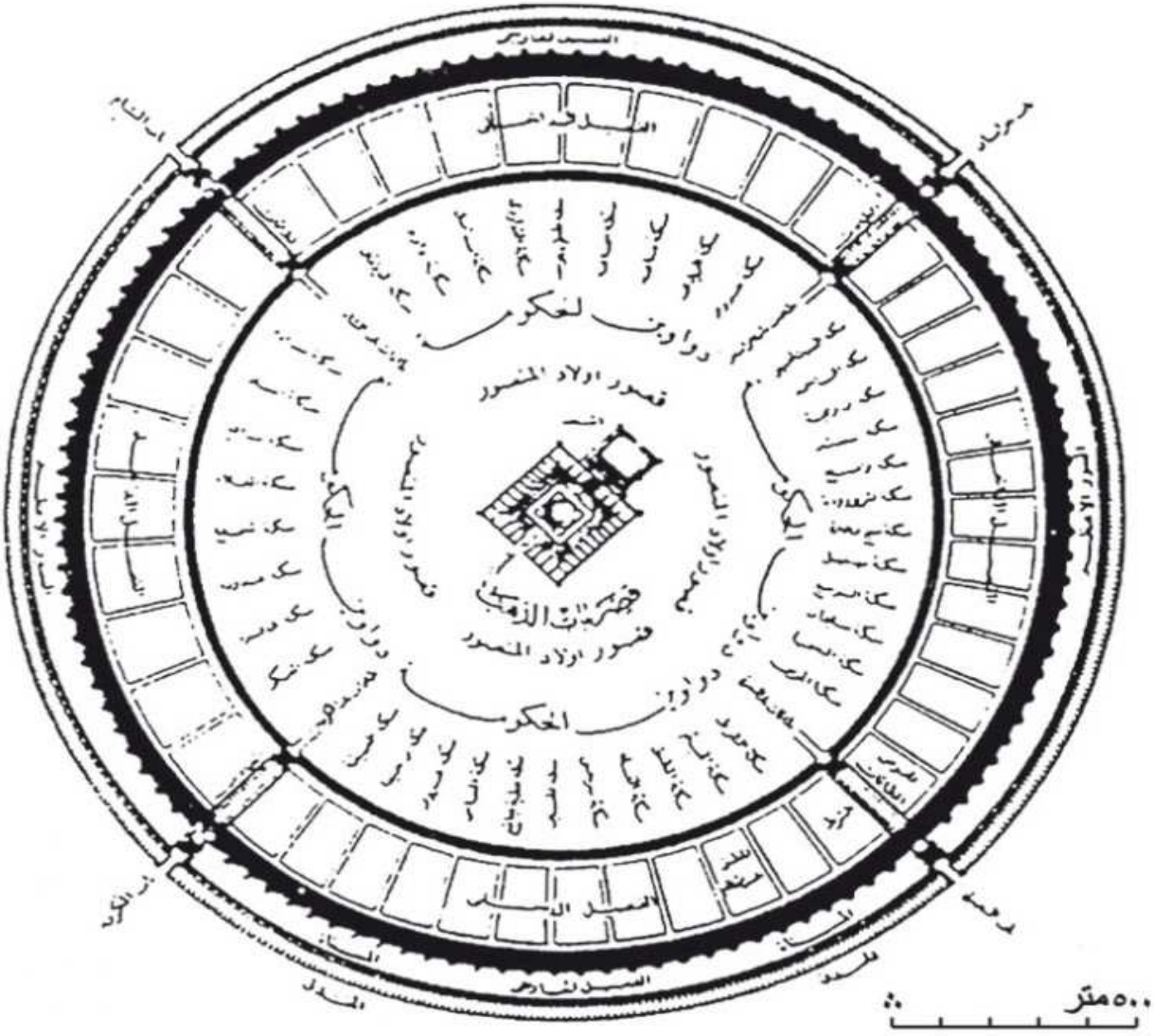

مخطط مدينة بغداد الدائرية

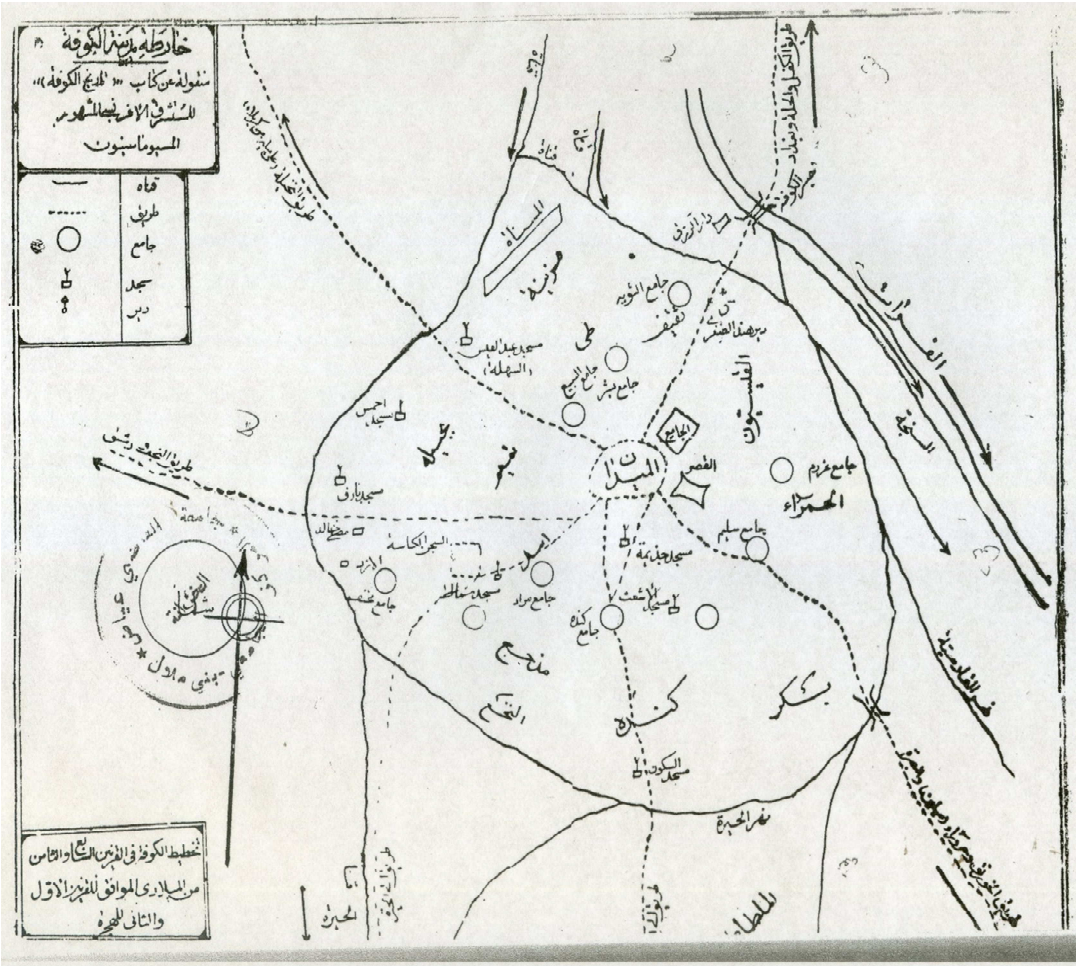

تصميم مدينة الكوفة

تصميم محكم ودقيق عند البناء، لكن غياب إدارة مستقلة للمدينة وتبعيتها للدولة، يجعله يتعرض بعد ضعفها أو اختفائها لتعديلات تشوهه.

4-الأمن في المدينة الإسلامية

حرص المسلمون على توفير الأمن داخل المدينة منذ اختيار موقعها ووضع تصميمها، حيث وضعوها وسط قبائل قوية للدفاع عنها، وبنوها في مواضع محصنة طبيعيا وأحاطوها بالأسوار لحمايتها، وعينوا لها حاكما وقاضيا وشرطة ومحتسبا وأمناء لضبط شؤونها. وسيكون تركيزنا على الطرفين المشرفين مباشرة على الأمن وهما: الحسبة والشرطة.

4-1-المحتسب: المشرف العام على المدينة

المحتسب من الحسبة وهي وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد شددت النصوص الشرعية على القيام بهذه الوظيفة.

ويعرفها الماوردي كما يلي:

"الحسبة هي أمر بالمعروف إذا ظهر تركه ونهي عن المنكر إذا ظهر فعله" (ص.299).

وإذا كانت النصوص تؤكد على أنها واجب على كل مسلم، فإن خوف الفوضى دفع الحكام منذ عهد عمر بن الخطاب إلى تعيين شخص يتولاها. وقد وضعت لتولي هذه المهمة شروط أهمها (حسب الماوردي-السقطي-ابن عبدون):

الذكورة (غير عام) -الحرية-العدل-الصرامة-الخشونة في الدين-العلم بالمنكرات الظاهرة-النزاهة-علوالهمة-التيقظ-الأناةوالحلم-الغنى-معرفةالحساب-معرفة جزئيات الأمور...

والمحتسب "لسان القاضي وحاجبه ووزيره وخليفته، وإن اعتذر القاضي فهو يحكم مكانه فيما يليق به وبخطته" (ابن عبدون 18)

وهو تابع للقاضي يعينه ويشرف عليه حسب أهل المغرب ويسانده حسب أهل المشرق لأن الخطة استقلت بنفسها عندهم.

ويعتبر المحتسب موظفا عموميا يحصل على أجر من بيت مال المسلمين، ويتخذ أعوانا يساعدونه في تنفيذ أحكامه ولا يخرجون إلا في حضوره حسب أهل المغرب، بينما يسمح له بإرسالهم لوحدهم في المشرق، وله في مصر ولاة في الكور، ويستعين بالأمناء (رؤساء أرباب الصناعات والتجارات) في الأسواق بحيث "يطلعونه على خفي أسرارهم وخبيث سرائرهم" (السقطي 9). ويجلس يوميا في الجامع أو مكان معلوم للناس ويطوف في الأسواق.

وأهم مهامه كما يلخصها ابن خلدون:

"يحمل الناس على المصالح العامة في المدينة مثل المنع من المضايقة في الطرقات ومنع الحمالين وأهل السفن من الإكثار من الحمل والحكم على أهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها وإزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة والضرب على أيدي المعلمين في المكاتب وغيرها في الإبلاغ في ضربهم للصبيان المتعلمين، ولا يتوقف حكمه في تنازع أو استعداء، بل له النظر والحكم فيما يصل إلى علمه من ذلك ويرفع إليه" ويضيف

ويحكم "فيما يتعلق بالغش والتدليس في المعايش وغيرها في المكاييل والموازين وله أيضا حمل المماطلين على الانصاف وأمثال ذلك مما ليس فيه سماع بينة وإنفاذ حكم، وكأنها أحكام ينزه القاضي عنها لعمومها وسهولة أغراضها" (المقدمة ص. 225-226).

وتضاف إلى هذا مناكر أخرى يتدخل فيها:

-دينيا: الحفاظ على صلاة الجماعة والجمعة في المساجد والأذان وصلاة العيد ومراقبة إهمال أمور الدين واحترام حرمة المساجد وإصلاحها...

-دنيويا: جلب الماء للمدينة والطعام وبناء السور وإصلاحه وإيواء أبناء السبيل ومنع شرب الخمر جهارا ومنع الملاهي والزنا ومراقبة الأطباء والقصارين (غاسلو الملابس) والصباغين ومراقبة أهل الذمة وحماية العبيد وحماية الدواب والنظافة والطرق ومقاعد الأسواق والكهانة وحماية المقابر والتحفظ على الضالة والتسول ومراقبة الحمام (كشف العورات والحجامة وتنجيس الماء) ومراقبة الولائم والمآتم...

يلاحظ أن مهام المحتسب واسعة جدا وتكاد تمس كل جوانب الحياة في المدينة، لكن قلصت مع التقدم التاريخي واقتصرت على مراقبة الأسواق.

ويتدخل المحتسب بطرق مختلفة ومتدرجة كما يلي:

- التعريف بالمنكر
- الوعظ بالكلام الخفيف
- التعزير والضرب الخفيف
- المنع بالقهر والقوة
- المنع من السوق والطرد منه

وظيفة لا تملك قوة ذاتية لذلك فهي مرتبطة بالدولة فعندما تكون قوية تتقوى بها والعكس بالعكس.

4-1-الشرطة:

بدأت في المدينة الإسلامية؛ كما يظهر، مبكرا ومنذ عهد الرسول الذي أنشأ عسسا ليليا، وكان سعد بن أبي وقاص أول من تطوع لحراسته. وفي عهد عمر بن الخطاب خلقت فرق للقيام بدوريات ليلية دائمة ومنظمة سميت بالعسس لأنها تعمل بالليل فقط، وشارك فيها رجال من قبائل المدينة يرأسهم عبد الله بن عباس ويحصلون على أجور، ثم انتشرت بعد ذلك في الأمصار. واستمر هذا النظام في عهد عثمان وأضاف إليه فرقة مكونة من فتيان أقوياء يعملون تحت إمرته لنشر الأمن والنظام وتنفيذ أحكام القضاء. وفي عهد علي عوض نظام

العسس بالشرطة وسمي رئيسها "صاحب الشرطة"، وتقوم بدوريات ليلا ونهارا وتطارد المجرمين وتراقب الأسواق وتفض نزاعات السكان وتحرس رجال الدولة والمؤسسات وتنفذ أحكام القضاء وألحق بها سجن.

في عهد الأمويين حافظت الشرطة على عملها القديم وأضيفت إليها الجندية، وزادت عدتها وعددها.

وفي عهد العباسيين خصص لها ديوان خاص كدليل على أهميتها، وانقسمت إلى شرطة العاصمة المكونة من فرق يرأسها ضباط، وشرطة عواصم الأقاليم.

وفي عهد الفاطميين في مصر نظمها جوهر الصقلي وأشرف عليها، وضمت شرطة عليا خاصة بالقاهرة وشرطة سفلى خاصة بالفسطاط. وتقوم بمهامها الأمنية والإشراف على السجون واستخدمت التجسس (البصاصين من النساء والعجائز) للوصول للمجرمين، وسمي صاحبها: صاحب الشرطة والوالي وصاحب العسس وصاحب المدينة.

في الأندلس الأموية خلقت الشرطة بنظامها الدقيق منذ عهد الحكم الربضي (180-206ه)، وضمت في البداية قسمين: شرطة عليا (تخص علية القوم من الخاصة) وشرطة صغرى (عامة الناس)، ثم أضاف إليها الناصر شرطة وسطى (الفئة المتوسطة). وتولاها رجال مقربون من الأمراء والخلفاء. وخلق أيضا نظام الدرابين بحيث يوزع رجال على الأحياء والشوارع والأزقة، ويغلق كل درب بعد غروب الشمس، ولكل زقاق باب فيه حرس له سراج معلق وكلب وسلاح.

ويقف صاحب الشرطة العليا قرب باب قصر الخليفة محاطا بأعوانه.

ووجد النظام في المغرب مع المرابطين والموحدين والمرينيين والأغالبة والزيريين والحفصيين.

نظام نشأ مع الدولة الإسلامية، وتطورت مهامه وأسماؤه وأعداده بتطورها وتزايد الحاجيات الأمنية، وانتشر في بقاع بلاد الإسلام.

5-الحياة الاجتماعية:

نبدأ ها بالحديث عن تعمير المدينة الإسلامية، فعادة ما يبدأ باستقرار رجال الدولة والقبائل الحليفة لها وبعض القبائل المجاورة لموقعها، بحيث توزع الخطط حسب القبائل والعشائر لتحمل بعد ذلك أسماءها. وقد تفتح المدينة للعموم بفتح باب الاستقرار بجانب السلطان وإعلان ذلك لأهل الدولة كما حصل في فاس والزهراء في الأندلس.

وتترك حرية توزيع أرض الخطة للقبيلة أو العشيرة التي تتكفل بتحديد الأزقة والسكك وترتيب السكان حسب مكانتهم من المجموعة. ويقطن كل درب أسرة ممتدة ويحمل اسم أحد مشاهيرها. ونظرا لكون روابط الدم؛ والولاء أحيانا، هي التي تجمع بين الساكنة فإن

العلاقات تكون متينةوقوية ويشتركون في كل شيء (أفراح-أتراح-زواج-تبادل الخدمات: أطعمة+أدوات+نار+افرشة+ملابس...)

وعند تقادم استقرار الساكنة وتطورها وتطعيمها بهجرات جديدة يضعف الطابع القبلي وينسى هذا النسب لصالح أنساب عائلية، وتتحول العلاقات إلى الاعتماد على الأساس الجغرافي (المدينة-الحي-الأسرة)، فتختفي قوة القبيلة لتحل محلها قوة فتوات الدرب والحي والمدينة.

وكلما تقدم الزمان كلما تغيرت تراتبية ساكنة المدينة، فعادة ما تبدأ قبلية، بحيث تحدد مكانة القبيلة على أساس مدى قربها من السلطة الحاكمة، ومكانة الأفراد حسب الوجاهة داخل القبيلة أو العشيرة. ومع التطور ينشأ مجتمع حضري يعتمد تقسيما جديدا مبنيا على المكانة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فيبدأ الحديث عن خاصة وعامة تتركز زعامتها في يد السياسيين وكبار الأغنياء والعلماء وأحيانا المتصوفة.

ويفسح هذا التنظيم المجال لاستقرار عناصر غير مسلمة من أهل الذمة من اليهود والنصارى الذين يعتبرون في حكم المحميين داخل الدولة، وقد خصصت لليهود ملاحات معزولة عن المسلمين لسكناها والعمل بها، وللنصارى فنادق خاصة في المدن الساحلية مثل: سبتة.

□اتمة

المدينة الإسلامية ميزة أساسية للحضارة الإسلامية التي تعتبر بحق حضارة أهل المدن، وقد تطورت منذ بداية دولة الإسلام مستفيدة من تجارب الحضارات السابقة واستطاعت أن تشكل وحدة متكاملة استجابت لحاجيات ساكنيها دون المس بثوابتهما الروحية والأخلاقية، كما حمت أرواحهم وأموالهم وحققت الطمأنينة لكل ساكنيها دون أن تسلم من تشوهات التطور التاريخي واضطرابات الزمان.